الفضائل تتكامل..ولا تتناقض

الإنسان الحق يجمع بين الفضائل. حتي التي تبدو في ظاهرها متناقضة: يجمع بين البساطة والحكمة. وبين الحنو والحزم. وبين الوداعة والشجاعة. وبين الطيبة والقوة. وبين المحبة والمخافة. وبين الرحمة والعدل.. وهكذا.

فلا يقتصر علي فضيلة واحدة. بل يجاهد ليكتسب الكل.

ولا يكتسب فضيلة علي حساب ضياع فضيلة أخري تقابلها.

ففضائله لا يهدم بعضها بعضا. بل يتمشي الكل معا في تناسق.

وليس هذا بمستبعد. فإن الله تبارك اسمه تجتمع فيه كل الفضائل معا. بلا تعارض. بل في تكامل عجيب..

أليست كل الفضائل تُبني علي الحق؟ والحق واحد. لا تناقض فيه وسنعرض الآن بعضا لهذه الفضائل التي تبدو متناقضة:

****

البساطة والحكمة:

من الأخطاء الواضحة أن يوصف إنسان بأنه بسيط. وهو غير حكيم. بل تكون "بساطته" لونا من السذاجة. وتؤخذ عليه تصرفات خاطئة. ويحاول الناس أن يعذروه قائلين إنه بسيط!!

هنا خطأ في التعريف. فالبساطة ليست هي السذاجة أو عدم الحكمة. بل البساطة هي عدم التعقيد.

ولهذا من الممكن أن يتكلم إنسان بحكمة شديدة. في موضوع عميق جدا. ولكن بأسلوب بسيط. فيجمع بين البساطة والحكمة.

تكون له حكمة في عقله. وبساطة في تعبيره وشرحه وأسلوبه. وقد يتصرف في أعقد الأمور بعمق الحكمة وبكل بساطة. وليس بتعقيد الفلاسفة.. بل في بساطة يمكن أن يفهمها الكل. وهذا ما قد يصفه البعض بالأسلوب السهل الممتنع.

****

كذلك ليست البساطة أن يصدق الإنسان كل شيء بلا تفكير!!

وبهذا يعطي البعض مجالا أن يخدعه أو يلهو به !! بل في بساطته لا يعيش في جو من الشك والحذر الدائم والظنون. وإنما يأخذ الأمور بلا تعقيد. وفي نفس الوقت يكون واعياً مفتوح العينين. وحاضر الذهن يستطيع أن يميز الذئاب التي تلبس ثياب الحملان. إنه لا يخلط الأوراق في تعقيد. بل يرتبها في حكمة.

كذلك في بساطته يطيع. وأيضا يمزج الطاعة بالحكمة

فلا يكون منقاداً بلا وعي. باسم البساطة. بل تكون الطاعة صفة واضحة في هذا الإنسان البسيط. ولكنها طاعة مميزة. في حدود وصايا الله. والعرف العام. والقانون.

****

الحب والحزم

قد يكون إنسان طيب القلب. مهذباً في كل معاملاته. ولكنه لا يصلح للقيادة. إذ تنقصه القدرة علي الإدارة. وضميره يتعبه إن اتخذ موقفاً حازماً في بعض الأوقات! كما لو كانت الإدارة والحزم ضد الرقة والدماثة!!

ولكن الإنسان الحق. المتكامل في شخصيته. يمكنه أن يجمع الأمرين معاً: الحنو والحزم. الطيبة والإدارة. الأبوة والرئاسة.

المفروض في الآباء والمدرسين أن يكون في طبعهم الحنو. وتكون لهم أيضا الهيبة. وليس من الصالح أن حنوهم يفقدهم هيبتهم!

الهيبة لازمة لحفظ النظام ولحراسة القيم. والحنو لازم حتي يطيع الناس بدافع من الاقتناع. والرضي. وليس بدافع من الرعب والإنسان الحق يهابه الغير عن حب واحترام. لا لمجرد الخوف!

****

ومن الأشياء الغريبة في محيط الأسرة. أن الوالدين يوزعان أحياناً الحب والحزم فيما بينهما:

فيكون للأم الحب والحنو. وللأب الحزم والشدة! بينما الحب والحزم ينبغي أن يكونا معاً لكل منهما...

فقد يخطيء الابن أو يحاول أن يخطيء. فتقول له الأم "لا تفعل هكذا. لئلا يغضب أبوك ويعاقبك. دون أن تقول له إنها هي أيضاً لا ترضي عن تصرفه لأنه خاطيء!! ويختلط الأمر علي الابن. ولا يعرف اين الحق! كل ما في الأمر أنه يتقي غضب الأب..

والأجدر بهذا الأب أن يمزج حزمه بالحب والعطف. ويقنع ابنه بما يوقع فيه من خطأ. يشعره بأن أية عقوبة توقع عليه. إنما سببها الحرص علي تقويمه وعلي مستقبله.

وأيضا لا يجوز للأم بدافع الحنو!! أن تخفي أخطاء ابنها عن أبيه. لان التستر علي الخطأ قد يتسبب في ضرره.

****

الحنو والحزم يتعلقان أيضا بموضوع الإدارة والمسئولية:

فربما رئيس عمل. يريد أن يكسب محبة مرؤوسيه. فيحنو عليهم في أخطائهم حنواً يضر بصالح العمل. فلا يعاقب حتي علي خطأ جسيم! وقد لا يوبخ أيضا. ولا يجري تحقيقا رسميا!

وهكذا نتيجة نقص الحزم. تفسد الإدارة. وتنتشر الأخطاء بلا ضابط. إلي أن يأتي الحزم من الخارج. من سلطة أعلي تحقق مع هذا الرئيس ومرؤوسيه. ويقع الجميع تحت المسئولية والعقاب.

بينما الإنسان الحق يمزج الحنو بالحزم. في حرص علي مصلحة العمل وعلي اخلاقيات مرؤوسيه ومستقبلهم. ومن أجل الحنو. قد لا يبدأ بالعقوبة. انما بالتوعية والتنبيه إلي الوضع السليم. وقد يكتفي في بادئ الأمر بالتوبيخ. وإذا لم يجد كافياً يلجأ إلي التحقيق الرسمي. ثم العقوبة علي قدر الخطأ. قبل أن يتطور الخطأ إلي ما هو أسوأ ولا يعتقد أن العقوبة ضد الحنو. بل يتذكر قول الشاعر:

فليقسُ أحياناً علي من يرحمُ قسا ليزدجروا. ومن يكُ حازماً

****

إن كان إنسان طيباً. فليس معني هذا أن يهمل واجبه. أو يفقد كرامته وحقوقه وهيبته.

ولا أن يفرط في الصالح العام باسم الطيبة. فالصالح العام هو مسئولية في عنقه. أمام الله والناس والضمير...

وإلا فسوف يكره الناس الطيبة. مادامت تؤدي إلي أخطاء لها خطورتها. والواقع ليس الخطأ في الطيبة. إنما في عدم فهمها علي حقيقتها. كذلك الخطأ في سوء استخدامها أو في سوء استغلالها..

كل فضيلة ينبغي أن توزن بميزان دقيق. ولا يمارسها أحد منفردة وحدها عن باقي الفضائل

يمكن أن يكون الإنسان طيب القلب. ولكن ليس معني الطيبة أن يسلّم قيادته إلي غيره. أو أن يشترك بضعف شخصيته في أخطاء الآخرين. أو أنه خوفاً من أن يغضب غيره يشترك معه في خطأ. يُدان معه فيه. أو أن يجامله في ذنب واضح!

****

الوداعة والشجاعة

كان السيد المسيح وديعاً جداً وطيب القلب ومسالماً. وقيل عنه إنه كان "لا يخاصم ولا يصيح. ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبةً مرضوضة لا يقصف. وفتيلة مدخنة لا يطفئ: "متي ١٢:١٩. ٢٠". ومع ذلك كان شجاعاً جداً. وبخ رؤساء اليهود في أيامه. وقال لهم إنهم قادة عميان. وقال لهم "هوذا بيتكم يُترك لكم خراباً".

وفي قوة شخصيته كان له تأثيره الكبير علي سامعيه.

إن الوداعة لا تمنع من الشجاعة. ولا تحوّل الإنسان إلي جثة هامدة. لا نخوة فيها. ولا شهامة. ولا حياة.

****

الوداعة ليس معناها الضعف. والشجاعة ليس معناها العنف

والوداعة والشجاعة تمتزج كل منهما بالحكمة والفهم. فيجب أن تستخدم الوداعة حين يحسن استخدامها. والشجاعة حين يلزم الموقف إلي استخدامها. وكل شيء له وقته الذي يناسبه..

الإنسان الضعيف لا يمكن أن يكون إنساناً مثالياً. ولكن لكي يكون قوياً. ينبغي ألا ينحرف إلي التهور والطيش. ولا أن يفقد وداعته وأدبه. إن فهم الشجاعة بطريقة خاطئة!

****

المحبة والمخافة

*** نحن نحب الله ونخافه. ولكن مخافة الله. لا تعني الرعب منه. بل تعني المهابة والخشوع**

نحب الله. ونسجد له. ويجتمع الأمران معاً

نحبه. ونخاف أن نكسر إحدي وصاياه. كما نخاف اليوم الرهيب الذي نقف فيه أمامه. لكي ندان علي كل عمل. وكل نية وكل فكر.. نقول هذا. لأن كثيرين باسم محبة الله يفقدون مخافتهم له. ويتحولون إلي الاستهتار والتهاون!

*** وكما نحب الله ونهابه. كذلك نحب آباءنا ونهابهم**

الابن يحب أباه. ويسعد بأن ينال رضاه وبركته. وفي نفس الوقت يهابه. ويخاف أن يغضبه أو يفقد رضاه عنه وهكذا المحبة والمخافة تجتمعان ولا تتناقضان.

*** ونفس المحبة والمهابة. في علاقتنا بأساتذتنا ومرشدينا. وبالرؤساء والشيوخ كبار السن. واحترام أولي الأمر منا**

ليس مجرد مخافة فقط. كما لو كان اولئك مصدر رعب!

ولا هو مجرد حب بدون مخافة ومهابة. بل يجتمع الأمران معاً

****

الرحمة والعدل

يظن البعض أن هناك لونا من التضاد بينهما. وليست الحقيقة كذلك فمن السهل أن يجتمعا

إن الله تبارك اسمه: رحيم في عدله. وعادل في رحمته عدله مملوء رحمة. ورحمته مملوءة عدلاً

ولا نستطيع مطلقاً أن نقول إن رحمته أكثر من عدله. أو أن رحمته تغلب عدله! حاشا. وإلا نسبنا إلي العدل الالهي نقصاً! وذلك مستحيل. لأن كل صفة من صفات الله كاملة لا نقص فيها.

وهكذا فالقاضي العادل ينبغي في نفس الوقت أن يكون رحيماً

ففيما ينظر بعدل كامل إلي الجرم وعقوبته. يقدّر أيضاً ظروف ارتكاب الجريمة. وسن الجاني. وعقليته. ونفسيته ودوافعه.

وحتي إن اقتضي الأمر أن يحكم بالإعدام. فإن الرحمة تقتضي ألا يتم الإعدام مباشرة. بل بعد مدة يفكر اثناءها الجاني في أبديته. ويستعد إلي لقاء ربه. بل يعُطي أيضاً فرصة للقاء برجل الدين. وهو في السجن. لكي ما يقوده إلي التوبة والاستعداد للأبدية.

****

الإنسان الحق أيضا في كل أحكامه علي الآخرين ينبغي أن يضع أمامه العدل والرحمة معاً

فلا يحكم علي أحد بمجرد معرفة الخطأ. إنما يقدّر أيضا ظروفه وعقليته وسنه. والأسباب التي دفعته إلي الخطأ.

وهكذا لا يكون حرفياً في أحكامه. ولا يستخدم العقل فقط ونَص الوصية أو القانون. إنما يستخدم القلب أيضا والعاطفة.

أحيانا يقولون الرجل يحكم بعقله. والمرأة تحكم بعاطفتها

ولكن ينبغي أن يكون الحكم بالنسبة إلي كليهما أن يُستخدم فيه العقل والعاطفة معاً. ولا يكون عقل الرجل بدون عاطفة. ولا تكون عاطفة المرأة بدون العقل.

****

خطورة استخدام الفضيلة الواحدة

الفضائل كلها مندمجة معاً. مثل حبات المسبحة يتخللها خيط واحد يجمعها كلها معاً.

وأهم خيط يجمع الكل هو المعرفة والحكمة وتقتضي الحكمة استخدام الفضيلة المعينة في الوقت المناسب لها. ومراعاة النتائج وردود الفعل. مع مراعاة عدم الحرفية. وعدم تعارض هذه الفضيلة مع فضائل أخري...

****

*** نضرب مثلا هو الطيبة واتضاع القلب:**

يسلك إنسان في الاتضاع بغير حكمة. ويضع نفسه تحت كل الناس. فيجد نفسه أخيراً عرضة لاستهزاء البعض به. ويقاسي من المهانة. ذلك لأنه لم يعرف معني الاتضاع الحقيقي. وطريقة استخدامه. ومعاملة من يسيئون فهمه أو يستغلونه باسلوب خاطئ.

*** مثال آخر هو من يستخدم الكرم والعطاء. باسلوب خاطئ يجعله ينفق ماله علي المحتالين وليس علي المحتاجين:**

وهذه الفضيلة تحتاج أيضا إلي أن ترتبطه بالمعرفة والحكمة. فيعطي بكل حب لمن هو محتاج فعلاً. ويحترس من أدعياء الاحتياج.

* والأمثلة كثيرة عن مساويء استخدام الفضيلة الواحدة.